الفصل الثالث

أديبتان من الشرق

باحثة البادية

ورفع الطبيب يده وهو يقول: «خلاص.. ضاع الأمل»!

وصاح الحاضرون: «ماتت ملك»! وأجهش الجميع بالبكاء.

وذهل الوالد «الشيخ» حفني بك ناصف، وكأنه لم يكن مقدرًا أن للموت سلطانًا على «باحثة البادية»، أو كأنه كان يرى أن لها من نبوغها ونفعها للمجتمع، شفيعًا لدى الأقدار، يدفع عنها اليأس، ويضمن لها الحياة أبد الدهر. وقد خدعته عاطفة الأبوة التي تحتل جوانح الآباء، وتزين لهم أن أبناءهم فوق الموت، يفزعون حين يتصورون أن للموت يدًا تمتد إليهم في يوم من الأيام، وهم تحت سلطان هذه العاطفة القوية الطاغية لا يكادون يؤمنون بفناء الأبناء حتى في الخيال ودائرة الأوهام، فكيف بالواقع؟!

فإذا حدث ما ليس منه بد، ووقع ما ليس منتظرًا، وصدمتهم الحقيقة، كانت الكارثة هائلة، والفجيعة لا تحتمل، والصدمة تصرع النفوس، وتذهل الألباب.

لم يكن من الغريب إذن على «الوالد» حفني ناصف أن يذهل يوم وفاة «باحثة البادية» بل لعله من الغريب ألا يذهل لذبول زهرتها، وخمود جذوتها في ربيع الحياة، وفي وقت كانت تقود فيه نهضة نسائية، وتقوم بحركة إصلاحية في حياة المرأة المصرية.. كانت كاتبة شاعرة، خطيبة بليغة مؤثرة، تناقش وتدافع عن المرأة وعن حقوقها المهضومة، رائدها في ذلك الاعتدال، والسير على سنة الدين الحنيف من المبادئ السامية التي تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيّه.

كانت تدعو إلى مجاراة العصر الحاضر بقدر ما تسمح به الحاجة، والاقتباس من الحضارة الأوربية بقدر ما يلائم حياة البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية، ولا ينافي القومية وروح الاستقلال التي تجب المحافظة عليها. وقد قالت في محاضرة ألقتها على السيدات في نادي حزب الأمة: «إن الضعيف إذا لم يرزق قوة التمييز خيِّل له أن كل ما يأتيه القوي حسن، ذلك مثلنا أمام المرأة الغربية، فهل ترون أن نثبت للملأ خمولنا وخلونا من التمييز؟.. أو ترون أن نعمل على حفظ قوميتنا وتقوية روح الاستقلال فينا وفي الأجيال القادمة من أولادنا؟

«إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح، تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الأوربية إلا الضروري النافع بعد تمصيره، حتى يكون ملائمًا لعاداتنا وطبيعة بلادنا. نقتبس منها العلم والنشاط والثبات، وحب العمل. نقتبس منها أساليب التعليم والتربية، وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة، ولا يجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب، فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة».

وقالت في موضع آخر: «لا أدري أنفضل المرأة الغربية في معرض الأخلاق أم تفضلنا، فهي أشجع منا في اقتحام الخطوب، وإن كانت لا تقل عنا في المصائب، ونحن لا ينقصنا ذكاء كذكائها، وإنما ينقصنا عزم وثبات كعزمها وثباتها، هي تعمل لتعيش، ونحن نتكل إما على آبائنا أو أزواجنا، فلا نعمل شيئًا، وهذا الاتكال معيب في نفسه.

«والمرأة الغربية تعتني بكل شيء حتى التافه، ونحن بما ركب في طبعنا من المسالمة نميل إلى الإهمال والكسل. وهي ولا شك أنشط منا، وأثبت على العمل.. إلا أننا أكثر قناعة، وأشد رضا بالقليل».

وكانت تجاهد في سبيل مبادئها طورًا بالكتابة في الصحف، وطورًا بالخطابة في المجتمعات، وكانت في ذلك أمل الوالد، وفخر مصر، وهي أول فتاة مصرية بل شرقية انبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر في الدفاع عن حقوق جنسها.. وعن حقوق الرجال أيضًا. وقد نظمت قصيدة حينما أعلن قانون المطبوعات الذي يحد من حرية الصحافة جاء فيها:

يا أمة نثرت منظومها الغير — حتام صبر ونار الشر تستعر
ماذا تقولون في ضيم يراد بكم — حتى كأنكم الأوتاد والحمر
ستسلبون غدًا أغلى نفائسكم — حرية ضاع في تحصيلها العمر
حرية طالما منوا بها كذبًا — على بني النيل في الآفاق وافتخروا

بقيت «ملك حفني» - أو باحثة البادية كما كانت تسمِّي نفسها - تجاهد في سبيل مبادئها، وتخدم النهضة النسائية مع قيامها خير قيام بالواجبات الزوجية، وقد امتحنت في حياتها امتحانًا قل أن تصبر عليه فتاة، ومع ذلك فلم تنل المحنة من آرائها في حقوق الرجال والنساء، ولم تؤثر الحوادث الممضة في اعتدالها وحكمتها في معالجة مشكلة الجنسين، وإن أثرت في صحتها، فأصيبت قبل وفاتها ببعض سنوات بمرض عرق النسا، فمكثت تعانيه في حلوان نحو أربعة أشهر، وفي هذه الأثناء بعثت إليها الأديبة الآنسة مي بخطاب تحدثت فيه عن نهضة المرأة العربية وما تعانيه من متاعب في ذلك الحين، فردت عليها باحثة البادية بهذا الخطاب[1]:

إلى الآنسة مي..

تفضلت فكتبت إلى كلمتك العذبة في «الجريدة»، وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت، فلم يكن في وسعي أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت مخيلتي لم تبخل بالرد. كانت رسالتك عزاء جميلًا لي في مرضي الطويل المؤلم، وبلسمًا ملطفًا لجراحي البالغة التي قلت إنك عثرت عليها. آلامي أيتها السيدة شديدة، ولكني أنقلها بتؤدة كأني أجر أحمال الحديد، فهل تدرين يا سيدتي ما هو لي.. ليس لي بحمد الله ميت قريب أبكيه، ولا عزيز غائب أرتجيه، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولي عليهم غرورها فأطمع في أكثر مما أنا فيه، وليس لي حال سيء أشتكيه

(1) نشر في الجريدة والمحروسة.

ولكن لي قلبًا يكاد يذوب عطفًا وإشفاقًا على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها، وهذا علة شقائي ومبعث آلامي.. إن قلبي يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد.

ومالي أحمِّل نفسي أعباء غيرها، وليست بمسيطرة على هذا العالم، ولكني كنت عاهدت نفسي على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد وإن كان تنفيذه شاقًا ومحفوفًا بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي إليه.

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا اكتفاء بالقليل الذي كتبت من قبل، ولكني كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية وثبط عزمي ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة، وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخًا إلا عنوان نهضة كاذبة.

تسألينني يا سيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه، وإنها لحال توجب الحيرة. ولا ندري أي الطرق نسلك لنصل سريعًا إلى الغاية التي نقصد إليها. كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنورها، وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأمًا نافعة أبناءها ووطنها، ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو موليها.. فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعًا للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالًا ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشى الأبصار.

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لا ينفي العلم وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيرًا كان سببًا لفسادها، وإن اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن. فأي الطريقين نسلك ومن نتبع؟ إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهي فينا حتى أصبحنا ولا رأي لنا في أنفسنا. فإذا قال لنا اختبئن حتى تدفن بالحياة صونًا لكُنَّ وتدليلًا كما يقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة:

على المدفون قبل الترب صونًا

وكقوله في أخت ممدوحة الثانية من رثاء أيضًا:

وما رأيت عيون الأنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب

وهل سمعت سلامًا لي ألم بها فقد أطلت وما سملت عن كثب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا، فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولأجلنا، أم هو يريد بنا شرًّا؟.. لا شك أنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل ولا شك أنه يخطيء ويصيب في تقرير حقوقنا الآن.

نحن لا نأبى أن نتبع رأي العقلاء والمصلحين من الأمة، ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها، ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه، وأن يصون لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره، وإلا فكل مناصر يفعل ما يشاء. والسلام عليك أيتها الفاضلة. من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير.

باحثة البادية

كان نتيجة جهادها لنهضة المرأة، أن ضعفت صحتها في أواخر سنى الحرب الكبرى، وهي بعد لم تتجاوز الثانية والثلاثين، وزاد في ضعفها ما كانت تعانيه من آلام نفسية لمرض والدتها، وشيخوخة أبيها، واتهام شقيقها «مجد الدين» بتهمة سياسية كادت تؤدي به إلى الحكم عليه بالإعدام في عهد السلطة العسكرية التي فرضت الأحكام العرفية على البلاد.

في وسط هذه الآلام، وبين هذه الأعباء التي كانت تحملها بصبر وجلد، وعزم وثبات، أصيبت سنة 1918 بالحمى الإسبانيولية، وهي ببادية الفيوم، فنصحها الطبيب ألا تفارق غرفتها، ولا تركب عربة ولا قطارًا، ولكنها الأخت الحنون، والابنة البارة التي ترى من واجبها أن تلازم والديها يوم الجلسة التي حددت للنظر في تهمة أخيها أمام محكمة الجنايات، فخاطرت بحياتها، وخرجت برغم إرادة طبيبها، وسافرت إلى القاهرة، ونزلت بمنزل أبيها بشبرا.

وجاءها نبأ براءة أخيها «مجد الدين»، فسرت واطمأنت، ولكن الحمى كانت قد تمكنت منها، وأتاح لها عبء السفر أن تتفاقم شدتها، حتى أضعفت حركة التنفس، فنصح الطبيب بمساعدتها بالأكسجين، فكان يعبأ لها في أنابيب جلدية ويعطي لها.

وفي يوم 17 أكتوبر ساءت حالتها، واشتدت وطأة الحمى عليها، وذهب شقيقها مسرعًا إلى الصيدلية لجلب الأكسجين، وما كاد يعود إلى منزله حتى قابل في الطريق زوجها عبد الستار الباسل وقد عقد لسانه، وبدا عليه الهلع، فأيقن أن الخطب قد نزل، وإن «باحثة البادية» قد فارقت الحياة بهمومها وآلامها، وصعدت روحها إلى السماء.

ولكنه فزع بآماله إلى الكذب، واصطحب زوجها إلى أقرب طبيب، فاستدعياه، وذهبا معه إلى حيث ترقد الأديبة النابغة على فراشها.

وخادع الجميع أنفسهم في موتها، وزعموا أنها مغمى عليها، ولكن أين الإغماء من الموت؟.. وأين الخداع من الحقيقة؟.. وما كان للموت أن يخدع.

وأقر الطبيب بعجزه، واستسلم للقدر، ورفع يده وهو يقول:

- خلاص، ضاع الأمل.

وصاح الجميع: «ماتت ملك..».

وذهل الوالد حفني ناصف، وخر مغمى عليه صريع الأشجان والآلام كما قال حافظ إبراهيم:

قد زعزعته يد القضا ... ء وزلزلته يد القدر

أنا لم أذق فقد البنـ ... ـين ولا البنات على الكبر

لكنني لما رأيـ ... ـت فؤاده وقد انفطر

ورأيته قد كاد يحـ ... ـرق زائريه إذا زفر

وشهدته أني خطا ... خطوا تخبل أو عثر

أدركت معنى الحزن - حز ... ن الوالدين - فما أمر

الآنسة مي

الحياة مد وجزر، وآمال وأحلام، وأفراح وأشجان، وابتسام ودموع.

هكذا هي الحياة، وتلك هي طبيعتها المعمرة المدمرة، المضحكة المبكية، السارة المحزنة، المحسنة المؤلمة.

وكلنا يتعاطى هذا الكأس ويذوق حلوها ومرها، ويسبر منها الهناء والآلام.

كانت الآنسة مي منذ هبطت مصر طفلة تعيش في ظلال أبوين بارين لم ينجبا غيرها، فأودع الله لهما في تلك الابنة الوحيدة من النجابة والنبوغ وشرف السمعة، ما لم يودعه في آلاف من البنين والبنات، فكانت قرة عيونهما، وعزاءهما الوحيد في الدنيا وآية فخرهما في هذه الحياة.

عاش الأبوان سعيدين بتلك الابنة النابغة، مغتبطين بما أكسبت جنسها من جمال الأحدوثة، وبما قامت به لقومها من خدمات أدبية مجيدة، وبما أضافته من صفحات ممتازة إلى تاريخ الأدب العربي، وتاريخ المرأة العربية في الشرق الحديث. ثم شاءت الحياة القاسية، أن تمتد يد الآلام إلى سعادة هذين الأبوين وأن تنقص من هناءة

هذه الأسرة الكريمة، فمرض الوالد «الأستاذ إلياس زيادة» مرضًا عضالًا، واشتد عليه المرض، وزاد من شدته ما كان يصادفه من بعض الشركاء الذين يقاسمونه قطعة أرض في لبنان.

وانقطع الوالد أشهرًا في منزله يعاني آلام هذا المرض الوبيل. وقد كان يخفف من آلامه، ويعزيه في مصابه ما يراه من حنان زوجته ورعاية ابنته، وعظيم برها، وفائق فضلها على النهضة الأدبية التي رفعت شأنها وأتاحت لها فخرًا لامعًا بين الآداب الأخرى. ولقد كان هذا الفخر جديرًا بأن يمد بغبطته وسروره في حياة الأب، لولا أن للعمر نهاية وللأجل غاية، فطوى القضاء آخر صفحة من صفحاته في سنة 1929.

***

كان لوفاة هذا الوالد البار تأثير عظيم في نفس الآنسة مي، فذاقت لأول مرة مرارة الحزن البنوي، وجرعت أول كأس لمأساتها الأخيرة منذ هذا المصاب الأليم، وابتدأت قصتها المؤثرة بهذا الحادث الجسيم.

وأطمعت هذه الوفاة «البعض» فيها، فعانت شقاء هذا الطمع، وصاروا يلاحقونها في كل حين حتى ضاقت بهم، وضاقت بالدنيا وسئمت الحياة. وهي في ضيقها الشديد، وسأمها الطويل تصبر ولا تشكو.

ومرضت والدتها واشتد عليها المرض، فتفاقم الخطب، وتضاعفت الآلام. ثم شاء القدر إلا أن ينزل بالكارثة الثانية فتوفيت الأم الحنون، فتجدد حولها طمع الطامعين، فكانت تصرفهم بما عرف عنها من بر وكرم.

وكان صيف سنة 1935، فجاء إليها بعضهم يطالبها بثلاثمائة جنيه، لأن أرضها مرهونة فطلبت أن تطلع على وثيقة الرهن فأطلعوها وضيقوا عليها هذا الطلب. حتى ضاقت بحالها واشتدت آلامها، وهي في شكواها وضيقها.. لا تصرِّح لأحد بما يثير في نفسها هذه الآلام، فأصيبت بمرض «الشعور بالاضطهاد». وجسم بعضهم هذا المرض فكتب إلى أقاربها في لبنان ينبئهم بأن الآنسة مي أصيبت بالجنون..! ويوصي بإرسالها إلى مستشفى العصفورية فجاء أحد أقاربها، فوجدها حزينة كئيبة، ضيقة بالدنيا، فطلب منها هذا القريب أن تسافر معه إلى لبنان لتغير الهواء فأبت، فألح عليها كثيرًا فقبلت وسافرت معه إلى بيروت ونزلت في داره وبعد أيام طلبت العودة إلى دارها بمصر، فأبى هذا القريب وأصر

على بقائها بلبنان، فأصرت على العودة وهددت بالإضراب عن الطعام فلم يأبه لهذا التهديد. ولم يسمح لها بالسفر، فأضربت عن الطعام وبقيت أيامًا لا تأكل، فخاطب مستشفى العصفورية في نقلها إليه، وهي مستشفى إنجليزي للأمراض العقلية بلبنان، فحملت إلى المستشفى.

***

نزلت الآنسة مي مستشفى المجانين، فما أروع تلك الساعة التي سيقت فيها أديبة الشرق إلى هذا المكان.. وما أشد ألمها في النفس وأفظع جرحها في القلوب!.

أهكذا الدنيا؟.. وهل هذا بلاؤها؟.. فما أروع هذا البلاء!.

الآنسة مي نابغة نساء الجيل، وفخر الأدب الحديث، التي أهدت إلى العقول ثروة عقلية كبرى، وإلى النفوس جيلًا كاملًا من جمال النفس وسمو الشعور، تنزل بين المجانين، وتسلب من خير ما فاقت به الملايين!

ما أهون الحياة، وما أسوأ الدنيا، وأظلم الأقدار!

والتفتت الآنسة مي حولها في مستشفى العصفورية، وتأملت حالها في هذا السجن العجيب، وقالت:

- أو لم يجدوا لي سجنًا أشرف من هذا السجن؟.. ما أشد قسوة الإنسان على أخيه الإنسان!.

وحرَّم على الآنسة «مي» تعاطي السجاير، فبقيت تقاسي ألم هذا الحرمان من عادة يصاب المحروم منها بأشد المتاعب والآلام، فبقيت تتوسل وتتلهف لعلها تصيب بهذا التوسل وذاك التلهف قلبًا رحيمًا يشفق عليها ويثوب إلى الإنصاف فيطلقها من عقالها أو يسمح لها بتعاطي سيجارة واحدة. فلا تجد هذا القلب الرحيم المنصف في ذاك المكان، ولا ترى حولها من الأصدقاء من يعينها في نكبتها، أو يسأل عنها في مصابها.

وكأنما «مي» التي ملأت مصر وسائر بلاد الشرق أدبًا وفضلًا، وشهرة وفخرًا، وتزاحمت النفوس على الإعجاب بها، وتاقت الأسماع والقلوب إلى الإنصات إليها - إذا خطبت أو تحدثت - كأنما «مي» هذه لا يعرفها إنسان ولم تمر ببال زميل من الأدباء أو أخ من الإخوان.

ابتأست «مي»، ويئست من الحياة ومن عدالة الإنسان. فأضربت عن الطعام، وصممت على الإضراب حتى تموت. وعبثًا حاول الأطباء أن يصرفوها عن الإضراب، فأصروا أن يغذوها بالأنابيب من الفم والأنف، ومكثت على هذا الحال عشرة أشهر، عانت فيها أشد الآلام وضعفت بنيتها ونقص وزنها حتى صار 28 كيلوجرامًا، وطلبت «مي» أن تكشف عليها لجنة من كبار الأطباء فاجتمعت وقررت أن لا شيء بها، وكتب الدكتور مارتان الطبيب الفرنسي تقريرًا ضافيًا ينفي إصابتها بأي مرض من الأمراض.. لكن إدارة المستشفى رأت أن تستمر في المستشفى مدة أخرى حتى تقوى بنيتها!

عجبت «مي» من حظها العجيب، واتصل خبرها ببعض عائلات لبنان، وكان عيد الميلاد، فجاء أحد اللبنانيين المقيمين بفلسطين ليعيد عند أقاربه ببيروت، ويدعى «الخواجة غانم» وهو من كبار التجار، وفي الطريق مرت به السيارة بالعصفورية، فسأل السائق عما يسمعه عن الآنسة «مي» فاخبره أن إحدى قريباته وهي ممرضة في المستشفى أخبرته أن صحتها جيدة ولا شيء بها. وهي في هذا المستشفى كالمسجون البريء.

وصل الخواجة غانم إلى بيروت فاعتزم أن يحدث أقارب الآنسة «مي» في إخراجها فقابلهم وذهبوا معه لزيارتها فوجدها جيدة الذاكرة، سليمة العقل، فخرج من عندها وقد أقسم ألا يعود إلى فلسطين إلا بعد أن تخرج من هذا المستشفى.

بقي الخواجة غانم أربعين يومًا يسعى حتى وفق في مسعاه، وخرجت الآنسة «مي» من المستشفى، ولكن لا إلى بيتها حيث تنعم بالحرية، بل إلى مستشفى للجراحة ببيروت.

سافر الخواجة غانم وقد ظن أن الآنسة «مي» سوف تبارح هذا المستشفى بعد أيام ريثما يستأجر لها بيتًا خاصًا، كما وعدوه بذلك، لكن لأمر ما لم ينفذ هذا الوعد، وبقيت في مستشفى الجراحة عشرة أشهر أخرى.

احتجت الآنسة «مي» وأضربت عن الطعام والكلام، أضربت عن الطعام لأنها لا تريد أن تذوق طعام هذه الحياة المرة، وأضربت عن الكلام لأنها أسفت لعقوق الإنسان.

وذات يوم زارها بالمستشفى الأستاذ فلكس فارس، فكان أول شخص رأته من

أصدقائها بعد عامين لم تر فيهما صديقًا، ولم تمسك فيهما قلما، ولم تقرأ كتابًا، ثم زارها الأستاذ أمين الريحاني، وكان قد جاء من أمريكا فعجب لحالها، وذاع وقتئذ بين جمهور الأدباء في لبنان أن الآنسة «مي» مسجونة، فانبرت الأقلام تدافع عن قضية «مي»، وتتساءل: «لماذا تسجن هذا السجن العجيب؟». وذهبت طائفة من الأدباء وأبلغوا النيابة، فانتقل النائب العام إلى المستشفى وقابلها. وبعد 48 ساعة من مقابلتها. جاء إليها مدير البوليس ومعه ستة من الضباط المسلحين، واثنان من المساعدين، وأخرجها من المستشفى في موكب انتظم فيه عدد كبير من سيارات الأصدقاء والمعجبين.

ووصلت الآنسة «مي» إلى المنزل الذي أعد لها وقدم لها الغذاء، فتناولته بيدها لأول مرة.. وأمسكت بالشوكة والسكين بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعامًا، ولم تمسك بها شوكة وسكينًا.

وعادت إليها حريتها، واطمأنت في مسكنها برأس بيروت، وسافرت إلى الفريكة فقضت بها بضعة أسابيع، وألقت في ذلك الحين خمس محاضرات ورسمت بريشتها بعض الصور.

***

وقبل مرضها الأخير بقليل كنت أزورها ذات ليلة فلمحت في وجهها شيئًا من التفكير الحزين، وفي حديثها هزة الاكتئاب والجزع، ثم سألتني: «هل تعرف تفسير الأحلام؟».

قلت: «ولماذا.. هل رأيت حلمًا؟».

قالت: «إني رأيت حلمًا مؤلمًا، وقد نهضت من نومي حزينة خائفة».

فقلت لها: «وما هو هذا الحلم؟».

قالت: «رأيت ليلة أمس سيدة مقبلة عليَّ ملتحفة بالسواد، فلم أتبين من هي.. حتى إذا اقتربت مني صرخت قائلة: «أمي..!»، فبكت... ثم أقبلت نحوي تضمني إلى صدرها وتبكي، فبكيت لبكائها، وقلت: «مالك يا أمي؟..» فلم تجبني.

«واستيقظت من نومي فازعة من هذه الرؤيا، فهي أول مرة أرى فيها والدتي بعد موتها، وقد شغلت بها حتى الآن بل تشاءمت، وأيقنت أني سأموت قريبًا، أو يصيبني مرض شديد..».

قصت «مي» هذه الرؤيا، وتقاطرت الدموع من عينيها، ثم استجابت لما عرف عنها من شجاعة وتجمل، وقالت:

- وهل عهدتني من الجبناء؟.. إني لا أخاف الموت ولا أخشاه، إن وراء الموت وجودًا غير ملموس يدعى السعادة. وإني لأشعر باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها.

فقلت لها: «مثلك من أعطى روحًا عاليًا، وأدبًا خالدًا لن يموت. لكني أشفق من أن تسيطر عليك الأوهام!».

قالت: «إنني لا أخدع بالأوهام، غير أني لا آمن صروف الأيام، فهل تسمح أن تبحث لي عن تأويل رؤياي؟».

فأخذت أطمئنها، ولكنها ألحت أن أستشير خبيرًا بتفسير الأحلام فوعدتها وذهبت أفكر فيما عسى أن أعود به إليها في الأسبوع التالي، وكنت أزورها كل أسبوع مرة، ثم اخترعت لها تأويلًا طريفًا، فلم يخف على ذكائها أنني أصانعها لأدخل على نفسها التفاؤل والاطمئنان. ولم يمض على ذلك بضعة أسابيع حتى مرضت وسافرت إلى لبنان.

***

سافرت «مي» إلى لبنان، وأدخلت مستشفى العصفورية، ومكثت به نحو ثلاث سنوات لمرض عصبي، ثم شاء الله أن ينقذها من سجن هذا المرض بعد شفائها، وعادت إلى مصر، ونزلت في شقة استأجرتها لنفسها، واعتزلت جميع أصدقائها، لأنهم في رأيها لم يكونوا أوفياء لها في محنتها بلبنان. وما علمت بحضورها، حتى وجهت إليها على صحيفة «الأهرام» هذه الأبيات:

أديبة الشرق هزت مصر راحتها ... بحسن لقياك ترحيبًا وتحنانا

عودي إلى مصر مثل الشمس ساطعة ... تزجي ضياءك آيات وعرفانا

عودي إلى النيل مثل الغيث مخصبة ... يجدد النيل عهدًا منك مزدانا

عـودي إلـى بلد أشجـى بلابله ... سكوت بلبلك الـصـداع أزمانا
كم قد حزنا لبعد طـال موعده ... وكـم حسدنا على الأيـام لبنانا
وكم شكونا فلم يسمع شكايتنا ... دهـر يـبـدل بـالأفـراح أشجانا
كنا وكـانـت ليالي الفن عامرة ... فجددي من ليالي الفن ما كانا
وأسمعينا حـديـثًـا كـلـه أدب ... يـروي فـؤادًا إلى الإبـداع ظمآنا
واطلعي من سماء العبقرية ما ... غابت محاسنه عـن مصرنا آنا
لا أخمد الله نـورًا منك مؤتلقًا ... قد صاغه الله إعـجـازًا وتبيانًا

وجعلت أبحث عنها أين نزلت حتى اهتديت. وفي ذات مساء دخلت عليها فجأة فوجدتها جالسة وحدها تسلي نفسها بشغل الإبرة، فحييتها وحيتني، وجلست معها ساعة، ثم صرت أتردد عليها.

وقبل ثلاثة أسابيع من وفاتها انقطعت عنها لسفري، ثم عدت، فعلمت أن «مي» مريضة في مستشفى المعادي، وإنها قبل ذلك أغلقت الباب عليها عدة أيام حتى ظن السكان أنها انتحرت أو وقع لها مكروه، فكسروا الباب، فوجدوها في سريرها شاردة الفكر، غائبة الوعي، صامتة، فجيء لها بطبيب، وأجريت لها الإسعافات، ثم نقلت إلى المستشفى.

استفاقت «مي»، واطمأن الطبيب أن القلب سليم، ولكن كانت تنتابها في فترات، غيبوبة.. ثم تفيق منها.

***

وفي منتصف ليل السبت في الثامن عشر من أكتوبر سنة 1941 بدأت «مي» تشعر بضيق في التنفس، وأخذت نبضات قلبها تسرع في الخفقان، فجعلت تصعد تنهدات أشبه بتنهدات الطفل وهو في حلم جميل.

سألتها الراهبة الممرضة عما تشعر، فلم تقو «مي» على الكلام فرفعت يدها إلى صدرها وأشارت ناحية القلب أن «هذا».. أن «هنا»..

obeikan.com

انقطع الأمل ولم يعد للأمصال من قوة.. قد حم القضاء ولم يعد للطبيب البشري من حيلة، وجاء دور الطبيب الروحاني.. نادت الراهبة الكاهن فدخل على «مي» فوجد نفسًا جميلة مستسلمة إلى القضاء.

وفي الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح نهار الأحد، التاسع عشر من ذلك الشهر خفق قلب «مي» الخفقة الأخيرة.

كانت «مي» في ساعتها الأخيرة أشبه بأن تكون في حلم جميل: بسمة الأطفال على شفتيها، وإغماضة رقيقة في جفنيها، وعلى رأسها إكليل من الورود والأزهار.. كأنها كانت في ساعة تأمل وتفكير.

سبحانك يا رب السماء والأرض جعلتها في الحياة جمالًا وجعلتها للموت جمالًا.

وخيِّل إليَّ أن «مي» على فراش الموت تردد شفتاها قولها:

«ثم أوحى إلي بأن هناك وجودًا غير ملموس يدعى السعادة، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها، والتمتع بتلك السعادة الأبدية»!

obeikan.com